الإبتلاءُ والسُّننُ الكونيةِ في القرآنِ الكريم

م.د. رائد عبد السادة حمزة المحمودي
كلية العلوم الاسلامية / جامعة بابل

Trials and Cosmic Laws in the Holy Quran

Asst.Dr. Raed Abdul-Sada Hamza Al-Mahmoudi
College of Islamic Sciences, University of Babylon
Email: 1234alqasem2010@gmail.com

ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد واله الطيبين الطاهرين .

وبعد : اقتضت الحكمة الالهية من خلق الإنسان أن يعبد الله سبحانه ولا يشرك به، وخلقه في هذه الحياة قائم على مبدأ الثواب والعقاب بعد أن هداه السبيل القويم ، وأودعه ما يسترشد به على ذلك فهو في محطة الاختبار منذ خلقه ، وهنا تكمن جدوى دراسة موضوع [الابتلاء والسنن الكونية في القرآن الكريم]، وتبين في هذا البحث المتواضع أنّ الابتلاء هو أحد السنن الكونية التي جعلت في الحياة الدنيا، وتبين عبر البحث مفهوم الابتلاء لغةَ واصطلاحاً ومعناه الاختبار ويكون في الخير والشر، وأنّ مفهوم السنن بالإفراد بمعنى الطريقة، وكذا علاقتها بالابتلاء كما تبين أنّ أول من جرت عليه هذه السنة هم الانبياء والاولياء "عليهم السلام" لدواعي كثيرة منها زيادة في الرفعة والمكانة عند ربهم ولعامة الناس، ومنها غرض التربية والتزكية ، كما أثير في هذا المضمون إنّ الاختبار الهدف منه الاستعلام، وهذا لا يجري على الذات المقدسة لأنّه بكل شيء عليم ، وظهر انّ الاختبار يقع في كل شيء منها الظواهر الطبيعية من الزلازل ، والصواعق والفيضانات ، والامراض والاوبئة، كما لا تصيب انسان دون آخر فكل فيه سواء فللمؤمن يكون رحمة ، وللكافر يكون نقمة كما تبين إنّ هناك اختبار بشري واختبار إلهي ؛ وذلك انطلاقًا من النّصوص القرآنية الشريفة والإستئناس بآراء المفسرين لكلا المدرستين ، وفي الختام إنّ الابتلاء يحتاج الصبر وتفويض الإمر لله تبارك وتعالى في كل شيء والحمد لله رب العالمين .

Abstarct

Praise be to God, Lord of the worlds, and prayers and peace be upon Muhammad and the good and pure God.

And after: Divine wisdom required the creation of a person to worship God, glory be to him, and not participate in it, and his creation in this life is based on the principle of reward and punishment after having guided the right path and deposited what guides him to that, he is in the test station since his creation. Here lies the importance of studying the issue of [affliction] The cosmic Sunnah in the Holy Quran.

التمهيد

أ- الابتلاء لغة:

قال الخليل (ت ١٧٠هـ) : " بلي الإنسان وابتلي [إذا امتحن] ، قال: بليت، وفقدان الحبيب بلية ... وكم من كريم يبتلى ثم يصبر، والبلاء في الخير والشر ، والله يبلي العبد بلاء حسنا وبلاء سيئا" (١)

وجاء في الصحاح للجوهري (ت ٣٩٣هـ) أنّ من معاني التمحيص قالوا: ومحصت الذهب بالنار، إذا خلَّصته ممَّا يشوبه. والتَمْحيصُ: الابتِلاءُ والاختِبارُ(٢)

قال أبو هلال العسكري(ت نحو ٣٩٥هـ) : " ويجوز أن يقال إنّ الابتلاء يقتضي

(١) كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال ، ج/ ٣٤٠

(٢) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ،أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تح: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط/ الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ ، ٣/ ١٠٥٦

استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية "[١] ، نلحظ هنا الغاية التي سيق من أجلها الابتلاء على المبتلى وهو مدى التزامه بطاعة الله وابتعاده عن معصيته .

قال ابن منظور(ت ٧١١هـ) : " وابتلاه الله: امتحنه، والاسم البلوى والبلوة والبلية والبلاء، وبلي بالشيء بلاء وابتلي ، والبلاء يكون في الخير والشر ، يقال: ابتليته بلاء حسنا وبلاء سيئا، والله تعالى يبلي العبد بلاء حسنا ويبليه بلاء سيئا " [٢]

ومن ذلك أنّ الابتلاء من الفعل ابتلى وهو بمعنى الامتحان ، أو الاختبار سواء كان في الخير، أو في الشر والغرض منه معرفة طاعة العبد من معصيته ، ونلحظ كذلك أنّ معظم المفاهيم اللغوية للإبتلاء جاءت بسياق المعنى المستعمل في القرآن الكريم ولم تبتعد عنه. وكما لا تبتعد عن معناه الاصطلاحي أو التفسيري لدى العلماء .

ب- الإبتلاء اصطلاحًا :

وردت كثير من التعريفات لمفهوم الابتلاء عند العلماء ولا يبتعد بعضها عن البعض الاخر في المعنى ، وإنّما قد يكون في الالفاظ و سنورد بعضًا منها :

الابتلاء: فِي الأَصْل، التَّكْلِيف بِالْأَمر الشاق من البلاء لكنه لما استلزم الاختبار بالنسبة إِلَى من يجهل العواقب ظن ترادفهما وَقَالَ بَعضهم: الابتلاء يكون فِي الخير وَالشَّر مَعًا، يُقَال فِي الخير: أبليته، وَفِي الشر: بلوته بلَاء [٣].

يرى ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) : "وقد يكون الابتلاء والاختبار بالرخاء، ويكون بالشدّة" [٤]، يشير الطبري أنّ الابتلاء يصيب الانسان في حال رخائه وحال شدّته ويورد الماتريدي (ت ٣٣٣هـ)، رواية : "عن ابن عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عنه - قال: الابتلاء

(١) الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، تح: محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ٢١٦.

(٢) لسان العرب ، ابن منظور، دار صادر – بيروت ، ط/ الثالثة – ١٤١٤ هـ، ١٤/ ٨٤.

(٣) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، الكفوي، تح : عدنان درويش – محمد المصري ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ٣٤.

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن ،الطبري ، تح: أحمد محمد شاكر ،مؤسسة الرسالة ،ط / الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م ، ٢٢/ ٣٨.

والتمحيص هما واحد "[١]، وقد مر في بيان الابتلاء لغة أنّ من معاني التمحيص وهنا يتبين إنّهما واحد في المراد .

الابتلاء : " فهو امتحان واختبار من الله سبحانه وتعالى لعبده الصادق ؛ ليعرف مدى صدقه وإخلاصه في محبته ، وبذلك يكون الابتلاء تجربة واختبار ، وأنّه مفتاح دار السعادة ، أو دار الشقاء في الدنيا والآخرة على السواء " [٢] .

وعرفه النيسابوري (ت ٨٥٠هـ) : الابتلاء هو ما وكّل بالأنبياء والأولياء فإنّه معروف من معارفه ، فالواجب على العبد أداء شكره إلى الله بإحسان [٣].

وعرفه المازندراني : البلاء ما يختبر به ويمتحن به من خير أو شر، وأكثر ما يأتي مطلقًا في الشر، وإذا أريد به الخير يأتي مقيدًا كما قال تعالى : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْـمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ [سورة الأنفال : ١٧]، وأصله المحنة والله تعالى بلى عبدًا بالصنع الجميل ليمتحن شكره، وبما يكره ليمتحن صبره[٤]، البلاء مشترك بين النعمة والمحنة؛ لأنّه من الابتلاء وهو الاختبار، والله تعالى يختبر شكر عباده بالنعمة ويختبر صبرهم بالمحنة[٥]، ويشار الى غاية سامية من أنّ سنة الابتلاء مجعولة في جبلة الانسان ، يقول السيد المدرسي:" أنّ الابتلاء جزء من وجوده [اي الانسان] دون أن ينفك عنه، ومن دونه تصبح حياته بلا روح و بلا هدف "[٦] .

(١) تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة)، الماتريدي تح: د. مجدي باسلوم ، دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، ط/ الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م ٢/ ٥١٢.
(٢) السر في أنفاس الصوفية، الجنيد البغدادي، تح: الدكتورعبد الباري محمد داود ، دار جوامع الكلم، القاهرة – مصر ، ط/ الأولى، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥ م: ، ١٦٧.
(٣) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان، النيسابوري، تح: الشيخ زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط/ الأولى – ١٤١٦ هـ ،١/ ٤٨٦ .
(٤) شرح أصول الكافي، المازندراني ، ٩/ ٢٠٦.
(٥) ينظر : أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، الرازي، ٩٦.
(٦) الابتلاء مدرسة الاستقامة ، السيد محمد تقي المدرسي ، دار محبيّ الحسين"ع" ، ط/ الثالثة ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م ، ٣ " المقدمة "

ت- الفرق بين الاختبار الالهي والاختبار البشري :

قد تقدم انّ الابتلاء هو الاختبار وإنّ أوّل ما يتبادر للذهن هو علّة هذا الاختبار ، فنحن نختبر الأفراد لنعلم ما نجهله عنهم ياترى هل أنّ الله تبارك وتعالى بحاجة إلى مثل هذا الإختبار لعباده لغرض العلم وهو خالقهم ، وهو العالم بكل شيء ؟! قال عزوجل : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الأنعام : ١٠١] ، وهل هناك شيء يخفى عنه تبارك وتعالى حتى يظهر له عن طريق الامتحان؟! أم هناك هدف وغاية من ذلك ؟

والجواب عن ذلك :

إنّا لا نخلو غالبًا عن الجهل بما في باطن الأشياء فنريد بالامتحان استعلام حالها المجهول لنا ، والله سبحانه وتعالى يمتنع عليه الجهل وعنده مفاتح الغيب ، فالتربية العامة الإلهية للانسان من جهة دعوته إلى حسن العاقبة والسعادة امتحان ؛ لأنّه يظهر ويتعين بها حال الشئ أنّه من أهل أي الدارين دار الثواب ، أو دار العقاب [(١)] .

وبمعنى آخر: أنّ مفهوم الإختبار الإلهي يختلف عن الإختبار البشري، حيث أنّ اختباراتنا البشرية تستهدف رفع الإبهام والجهل، والاختبار الإلهي قصده التربية [(٢)]، للعبد في بيان تعاليمه وأحكامه وكل ما خلق على الارض هو سبحانه بمثابة البلاء والفتنة ؛ ولذلك سمّى الله تعالى هذا التصرف الإلهي من نفسه أعني التشريع ، وتوجيه الحوادث بلاءً وابتلاءً ، وفتنة فقال الله تعالى بوجه عام:﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الكهف : ٧] وقال: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [سورة الإنسان : ٢] وقال: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٥] وكأنه يريد به ما يفصله قوله: ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [سورة الفجر : ١٥] وقال ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [سورة الفجر : ١٦] وقال: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن ، السيد الطباطبائي، ٤/ ٣٦

(٢) ينظر: الامثل في تفسير كتابِ الله المُنزَل، الشَيخ نَاصرِ مَكارم الشِيرازي ،الاميرة للطباعة والنشر والتوزيع / بيروت – لبنان، ط/ الاولىَ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م ، ١/ ٢٨٦

فِتْنَةٌ﴾ [سورة التغابن : ١٥] وقال: ﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [سورة محمد : ٤] وقال ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [سورة الأعراف : ١٦٣] وقال ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [سورة الأنفال : ١٧] وقال: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [سورة العنكبوت : ٢] ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت : ٣] [١] .

وقال في مثل إبراهيم ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [سورة البقرة : ١٢٤]، وقال في قصة ذبح إسماعيل ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [سورة الصافات : ١٠٦] وقال في موسى ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [سورة طه: ٤٠] إلى غير ذلك من الآيات [٢] .

يقول العلامة الطباطبائي : إنّ الآيات تعمم المحنة والبلاء لجميع ما يرتبط به الانسان من وجوده وأجزاء وجوده كالسمع والبصر والحياة ، والخارج من وجوده المرتبط به بنحو كالأولاد والأزواج والعشيرة والأصدقاء والمال والجاه وجميع ما ينتفع به نوع انتفاع ، وكذا مقابلات هذه الأمور كالموت وسائر المصائب المتوجهة إليه ، وبالجملة الآيات تعد كل ما يرتبط به الانسان من أجزاء العالم بلاء من الله سبحانه بالنسبة إليه [٣]، ويرى في الآيات تعميم آخر من حيث الافراد فالكل مفتونين مبتلين من مؤمن أو كافر ، وصالح أو طالح، ونبي أو من دونه فهي سنة جارية لا يستثنى منها أحد [٤]، وإنّ ما وراء الاختبار هناك غاية تتجلى بقصد الجزاء والاختبار للعباد من الله سبحانه وتعالى لا بقصد العلم فحسب ، فالعلم بذاته حاصل لديه وإنّما أريد بذلك الابتلاء ، أو الاختبار هو مبدأ الجزاء فيما بعد .

يقول السيد علي الحائري: " وذلك الاختبار لا لنعلم شيئا لم نكن عالمين به ، بل ليترتّب الجزاء على المطيع والعاصي ؛ لأنّ ترتّب الثواب والجزاء لا يصحّ إلّا بعد وقوع الفعل من

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن ، السيد الطباطبائي، ٤/ ٣٦-٣٧
(٢) ينظر: المصدر نفسه، ٤/ ٣٦-٣٧
(٣) ينظر: الميزان في تفسير القرآن ، السيد الطباطبائي ، ٤/ ٣٧
(٤) ينظر: المصدر نفسه ٤/ ٣٧

المكلَّف ولا يصحّ أن يترتّب بمجرّد العلم"[١] قال البغوي (ت ٥١٠هـ) :"وابتلاء الله العباد ليس ليعلم أحوالهم بالابتلاء؛ لأنّه عالم بهم ، ولكن ليعلم العباد أحوالهم حتى يعرف بعضهم بعضا" [٢] .

المبحث الاول

فيه مطالب :

المطلب الأول : مفهوم السنن الكونية :

السّنن جمع سنة: وهي الطريق المعبّدة المسلوكة، والنظر في سنن الماضين من سبل الرشاد وفيها وجوه من الحكمة منها الاعتبار بها واتمام الحجة على اللاحقين، وتسلية لما يجري عليهم، والاستفادة من تجاربهم وغير ذلك ؛ ولذلك ظهرت عناية الله بها عزّ وجل وذكرها في مواضع متعددة بالجملة فهو إرشاد إلهي[٣].

السنن الكونية: هي التي تتعلق بالأشياء والظواهر والأحداث المادية والطبيعة غالبا[٤]، وقالوا : إنّ السنن الكونية : هي التي لا تنخرم إلا أن تتدخل القوة الإلهية فتخرمَها، فالنار تحرق إلّا أن يشاء الله، والميت لا يرجع إلّا أن يحييه الله، و هذه السنن لا يقدر على خرقها أحد إلّا الذي سنها أول مرة [٥]

ويرى البعض أنّ السنن الكونية لا علاقة لها بالدين أو الثقافة، فمتى وجدت أسبابها وقعت النتائج، سواء كانت الأسباب في أمة كافرة ، أو أمة مسلمة [٦] ، يلاحظ من هذا أنهّا

(١) تفسير مقتنيات الدرر، سيد علي الحائري الطهراني ،مطبعة الحيدري – طهران ، ١٣٣٧ ش ، ١/ ٣٤١
(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن ، البغوي تح: محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط/ الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م ، ١/ ١٤٥.
(٣) ينظر: مواهب الرحمان في تفسير القرآن ، السيد عبد الاعلى السبزواري ، ٦/ ٣٥١-٣٥٢
(٤) السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم ، توفيق بن أحمد الغلبزوري، كلية أصول الدين– جامعة القرويين– المملكة المغربية ، ٧
(٥) ينظر: الفاضح لمذهب الشيعة الإمامية ، حامد مسوحلي الإدريسي ، مكتبة الرضوان، مصر ، ط/ الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م ، ٣٠
(٦) ينظر: الوحي والإنسان – قراءة معرفية ، محمد السيد الجليند ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ، ١٥٠

تتعلق بالجانب المادي وعالم الوجود ، ومن المأخذ على هذا الكلام أنّه كيف لاتكون السنن الكونية ليست لها علاقة بالدين او الثقافة وغيرها، نعم من حيث الوجود فهي ثابتة من قبل الله تعالى أمّا تدخلها بغيرها ومتعلقاتها فهي تتغير بإرادة الله تعالى ومشيئته كما ندرك أنّ النار محرقة لا محال ، إذن فكيف نجى ابراهيم "عليه السلام" منها فأصبحت النار بردًا وسلامًا؛ ولذا يرى البعض انّ الحقّ، هو مركز الدائرة الذي يدور عليه هذا الوجود، وهو النظام الممسك بكل ذرة من ذراته، وإن الحقّ هو هذه السنن الكونية التي قام عليها نظام كل موجود إنّه الأسباب والمسببات وإنّ أي خروج على الأسباب يفضى إلى فساد المسببات واضطرابها..[1]، فعندما تسلكُ الأمم مسالك الإنحراف عن جادة الحق والعدل، والإقبال على الظلم والجور، والإنغماس في بحار الشهوات، والغرق في أمواج الإفراط في التجمل والرفاهية وتنحرف عن سنن الكون وقوانين الخلقة، تفقد مصادرها الحيوية الواحد تلو الآخر، وتسقط في النهاية مثل حضارة بابل، وفراعنة مصر، وقوم سبأ، والكلدانيين والآشوريين، وأمثالها، توضح الحقيقة التالية، وهي أنّه لدى صدور الأمر بزوال هذه المدنيات والحضارات الكبرى إثر بلوغ الفساد أوجه فيها لم تستطع حكوماتها أن تحفظ أسسها المتزعزعة حتى ساعة واحدة.[2]

المطلب الثاني : علاقة الابتلاء بالسنن الكونية:

لا شك أنّ الابتلاء أو المحنة سنة من سنن الحياة، وأنّه من السنن الكونية على مر العصور والدهور[3]، تصيب الانسان على نظام ومبدأ التحذير والتنذير له.

إنّ الجميع سائر إلى الله سبحانه سالك نحو الغاية التي قدرت له ، فإذا اختل أمر بعض أجزائه، وضعف أثره وانحرف عن مستقيم صراطه بانَ أثر فساده في غيره، وانعكس ذلك

(١) التفسير القرآني للقرآن ، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي – القاهرة، ٩/ ١١٦٠
(٢) ينظر: الامثل في تفسير كتابِ الله المُنزَل ، الشَيخ نَاصرِ مَكارم الشِيرازي ،الاميرة للطباعة والنشر والتوزيع / بيروت – لبنان، ط/ الاولى ، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م ، ٥/ ٢٣
(٣) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ط/ الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م ، ٢/ ٤٢١

منه إلى نفسه في الآثار التي يرسلها ذلك الغير إليه، ولو استمر على انحرافه واعوجاجه، وأدام فساد حاله دامت له المحنة حتى إذا طغى وتجاوز حده، وأوقفت سائر الأسباب المحيطة به في عتبة الفساد انتهضت عليه سائر الأسباب وهاجت بقواها التي أودعها الله سبحانه فيها، فحطمته ودكته ومحته بغتة وهو لا يشعر[1] .

وهذه السنة من السنن الكونية التي أقرّها الله سبحانه في الكون غير متخلفة عن الانسان، ولا الانسان مستثنى منها فالأمة من الأمم إذا انحرفت عن صراط الفطرة انحرافا يصده عن السعادة الانسانية التي قدرت غاية لمسيرة في الحياة ، كان في ذلك اختلال حال غيره مما يحيط به من الأسباب الكونية المرتبطة به، وعند ذلك تظهر اختلالات في اجتماعاتهم، ومحن عامة في روابطهم العامة كفساد الأخلاق، وتهاجم النوائب وتراكم المصائب والبلايا الكونية كامتناع السماء من أن تمطر والأرض من أن تنبت، والبركات من أن تنزل، ومفاجأة السيول والطوفانات والصواعق والزلازل ، وخسف البقاع وغير ذلك كل ذلك آيات إلهية تنبه الانسان وتدعو الامة إلى الرجوع إلى ربها ، والعود إلى ما تركه من صراط الفطرة المستقيم، وامتحان بالعسر بعد ما امتحن باليسر ، تأمل في قوله تعالى:﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الروم : ٤١] تراه شاهدا ناطقا بذلك ، فالآية تذكر أنّ المظالم والذنوب التي تكسبها أيدي الناس توجب فسادا في البر والبحر مما يعود إلى الانسان كوقوع الحروب وانقطاع الطرق وارتفاع الامن وغير ذلك، أو لا يعود إليه كاختلال الأوضاع الجوية والأرضية الذي يتضرر بها الانسان في حياته ومعاشه[2]

وقال في موضع آخر : " إنّ سنة الامتحان سنة إلهية جارية وهى سنة عملية متكئة على سنة أخرى تكوينية، وهى سنة الهداية العامة الإلهية من حيث تعلقها بالمكلفين كالانسان وما يتقدمها وما يتأخر عنها أعني القدر والأجل "[3]

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن، السيد الطباطبائي، ٨/ ٢٠٠.
(٢) ينظر: المصدر نفسه ، ٨/ ٢٠١.
(٣) ينظر: المصدر نفسه ، ٤/ ٣٧.

فحقيقة الابتلاء أنّه من عند الله قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٦]. وعندما يتحدث القرآن عن الابتلاء الشديد لبني إسرائيل على يد فرعون فإنّه يذكرنا بأنّ جوهر هذا الابتلاء أنّه من عند الله عن طريق فرعون قال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [سورة البقرة: ٤٩].

أرأيت بماذا ختمت الآية قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وليس من فرعون، وإنْ كان هذا لا يعفي فرعون من المسؤولية، فهو بالفعل يريد التنكيل بالفئة المؤمنة، وطالما تربص بها، وكاد لها وخطط لزوالها، ولكن الذي مكنه من ذلك هو الله عز وجل[١]

يقول السيد السبزواري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [سورة البقرة : ٤٩] البلاء هو الاختبار والامتحان، وأنّه يستعمل في الخير والشّر قال سبحانه : ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [سورة الأنبياء : ٣٥] وقال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [سورة محمد : ٣١] ، فهو إمّا إنعام او انتقام، وربّما يكون إنعامًا لقوم، وانتقامًا من آخرين، وهو كثير في سنة الله الجارية في هذا العالم ؛ ولذا عبّر الله تبارك وتعالى بكلمة [ربكم] لانّ الربوبية العظمى تقتضي ذلك[٢] ،

والخلاصة علينا أن لا نعترض الارادة الالهية، ولا نتذمر منها قائلين: لماذا كل هذه المآسي والمصائب التي تنزل علينا، ولماذا لا نعيش في هذه الدنيا براحة ونعيم كما يعيش الآخرون، ولماذا لا نخرج من صراع إلاّ لندخل في صراع آخر؟

فطبيعة الحياة الدنيا والسنن الإلهية تقتضي أن يدخل الإنسان في سلسلة من الامتحانات، ونحن لا نستطيع أن نهرب من تقديرات الله تبارك وتعالى التي تأتي بحكمته وتدبيره[٣]،

(١) ينظر: الابتلاء وكيف تستفيد منه الدعوات ، مجدي الهلالي، مؤسسة اقرأ، للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة ، ط/ الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م ، ٣.

(٢) ينظر: مواهب الرحمان في تفسير القرآن ، السيد عبد الاعلى السبزواري ، ٥ / ٣١٧.

(٣) الابتلاء مدرسة الاستقامة ، السيد محمد تقي المدرسي ، دار محبيّ الحسين"ع" ، ط/ الثالثة ، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م ، ٨.

وبالتأكيد إن ربنا عز وجل حينما سنّ هذه السنة الكونية وفّر للإنسان من جهته الشروط والمستلزمات التي تجعل الإنسان مسؤولًا عن الامتحان وقادرًا عليه ؛ فتكون حجته عليه عندما يفشل في ذلك ويكفر، ووسيلة لصالحه عندما ينجح في اختباره ويؤمن [١] .

اذن إنّ سنة الابتلاء هي سنة إلهية عليا، والهدف الأساس منها لخلق الإنسان في هذه الدنيا، فإنّ الحق والباطل يتقابلان على صعيد واحد أبدًا ليختار من يريد الحق بوعي ورشد وليهلك من يختار الهوى بحجة بالغة عليه [٢] .

المبحث الثاني

السنن الكونية في القرآن الكريم :

إنّ لفظ "السنة" جاء في القرآن الكريم بالصيغة الصريحة في ستة عشر موضعًا، فجاء مفردًا في أربعة عشر موضعًا، وجمعًا في موضعين، وجاء مضافًا إلى الله تعالى في تسعة مواضع، ومضافًا إلى الرسل "عليهم السلام" في موضع واحد، ومضافًا إلى الأولين في أربعة مواضع، ومضافا إلى الذين من قبل في موضع واحد، وجاء نكرةً مجردةً عن الإضافة في موضع واحد[٣] "وإن أضيفت إلى غير الله تعالى في بعض النصوص، فإنها لا تنفك عن كونها من خلق الله وإرادته وقدرته سبحانه "[٤] ، أنّ هذه الدنيا بُنيت بكل مفرداتها من الذرة حتى المجرَّة وأصغر من ذلك وأكبر على أساس من السنن الكونية والمقاييس والقوانين الحكيمة حيث قال تعالى :﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر: ٤٩]، وبالتالي يجب على الإنسان أن يكيِّف نفسه وحياته وعلاقاته بكل شيء فيها على هذا الأساس[٥]

ووصف الله سبحانه السنن الكونية في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب : ٦٢] وقال تعالى : ﴿ فَهَلْ

(١) ينظر: الابتلاء مدرسة الاستقامة ، السيد محمد تقي المدرسي ، ٤ " المقدمة "
(٢) ينظر: من هدى القرآن، السيد محمد تقي المدرسي، دار القارئ / بيروت – لبنان : ١/ ٢١٧-٢١٨ .
(٣) فقه سنن النفس والمجتمع في السنة النبوية ، د: إدريس العلمي ، أطروحة دكتوراه، بكلية الآداب/ جامعة محمد الأول –وجدة ، ١٨ .
(٤) السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم ، توفيق بن أحمد الغلبزوري ،٥.
(٥) ينظر: من هدى القرآن، السيد محمد تقي المدرسي، ١٠/ ١١٠.

يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر : ٤٣] وهذه السنن والقوانين التى أوجدها الله في ملكوته بحكمته، وأجراها بتدبيره قد استطاع الانسان المفكر أن يهتدى إلى بعض منها بتوفيق من الله. (١)

أشار القرآن الكريم الى السنن الكونية ونبّه الانسان عليها وخاطبه بشكل متكرر، وأشعره بالغفلة عما في الكون من دلائل ومعجزات منها : قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: ٤٦] ، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٢٧] .

وتكرر ذلك في القرآن كثيرا، ومن له خبرة باللغة ودلالة هذه الصيغ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا ...﴾ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا... ﴾ يعلم تماما أهمية الإشارات القرآنية إلى اكتشاف السنن الكونية التي نبه إليها القرآن وأثرها في العمران البشري ، ولكن للأسف الشديد لقد غفل المسلمون عن النظر في هذين النوعين من القوانين: قوانين الكون الطبيعي، وقوانين الكون الاجتماعي، أو تغافلوا عنهما أو أريد لهم وبهم أن ينصرفوا عن ذلك؛ فكان واقعهم المتردي علميا واجتماعيا هو النتيجة الطبيعية لهذه الغفلة(٢)

" إنّ هنالك سننًا ثابتة لهذا الكون يملك "الإنسان" أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض ، وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية ، وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة، وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها " (٣).

(١) ينظر: القرآن وإعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم ، دار الفكر العربي – دار الثقافة العربية للطباعة ، ١٦٩.

(٢) ينظر: الوحي والإنسان – قراءة معرفية ، محمد السيد الجليند ، ١٥٣.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى ١٣٨٥هـ) ، دار الشروق – بيروت– القاهرة ، ط/ السابعة عشر – ١٤١٢ هـ ، ٢/ ١١١٩.

يقول السيد المدرسي في بيان قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٢] " بل من الخطأ أن يتصور المرء أنّ مجرد اعتقاده القلبي، واقراره بالربوبية الالهية، وايمانه بأركان الدين تكفي أن تحيل حياة المؤمن الموحد الى روضة بهيجة في هذه الدنيا، فإنّ حقيقة الايمان بالشيء تقتضي اثباته في الواقع الخارجي، وجلب المصداقية المفترضة للدلالة عليه" [(١)] ؛ لذا كانت سنة التاريخ والأمم والحضارات السابقة، والحاضرة كذلك الافتتان لاثبات دعوى الايمان. قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ [سورة العنكبوت:٣]

المبحث الثالث

الابتلاء في القرآن الكريم :

البلاء كما تقدم يعني الامتحان، فالحوادث والمصائب التي نزلت ببني إسرائيل مثلًا كانت بمثابة الامتحان لهم. كما قد يأتي البلاء بمعنى العقاب؛ لأنّ بني إسرائيل سبق لهم أن كفروا بنعمة ربّهم، فكان ما أصابهم من آل عمران عقابًا على كفرانهم[(٢)]

وذكر بعض المفسرين أنّ التكليف بمعنى البلاء بوجوه أوردها الراغب التكليف بلاء من أوجه[(٣)] وهي :

- أحدها: أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاء.

- والثاني: أنّها اختبارات، ولهذا قال الله عزّ وجل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴾ [سورة محمد: ٣١] .

- والثالث: إنّ اختبار الله تعالى للعباد تارة بالمسرة ليشكروا، وتارة بالمضار ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر.

ويمكن لنا ان نستوضح بعض موارد الاستعمال للبلاء في القرآن الكريم بما يسمح له

(١) الابتلاء مدرسة الاستقامة ، السيد محمد تقي المدرسي ، ١٠٢-١٠٣
(٢) ينظر: الامثل في تفسير كتابِ الله المُنزَل، الشَيخ نَاصرِ مَكارم الشِيرازي ، ١/ ١٥٠-١٥١
(٣) المفردات في غريب القرآن ، الراَغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) ، تح: صفوان عدنان الداودي ، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت ، ط/ الأولى - ١٤١٢ هـ ، ١٤٥

البحث باختصار؛ وذلك عن طريق طرح بعض المطالب التالية :

المطلب الأول : الابتلاء وخلق الانسان :

في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [سورة الإنسان : ٢] للمفسرين أقوال فيها :

قال الطبرسي : و قوله ﴿ نَبْتَلِيهِ ﴾ " أي نختبره بما نكلفه من الأفعال الشاقة ؛ ليظهر إمّا طاعته وإمّا عصيانه فنجازيه بحسب ذلك ، قال الفراء معناه " فجعلناه سميعا بصيرا " لنبتليه أي لنتعبده و نأمره و ننهاه و المراد فأعطيناه آلة السمع و البصر ليتمكن من السمع و البصر و معرفة ما كلف" [١]

يقول الرازي (ت ٦٠٦هـ) إنّ في هذه الآية قولان : الاول : أنّ فيه تقديما وتأخيرا، والمعنى فجعلناه سميعا بصيرا لنبتليه والثاني: أنه لا حاجة إلى هذا التغيير، والمعنى إنّا خلقناه من هذه الأمشاج لا للبعث، بل للابتلاء والامتحان ، ثم ذكر أنّه أعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر [٢]، ويرى البعض الابتلاء جاء على نحو الاستعارة لا الحقيقة في الابتلاء حيث ذهب الى ذلك البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) حيث قال : " نَبْتَلِيهِ في موضع الحال أي مبتلين له بمعنى مريدين اختباره ، أو ناقلين له من حال إلى حال فاستعير له الابتلاء" [٣] ، ويمضي في هذا المعنى جملة من المفسرين نحو انتقال الانسان في الخلقة من حال الى حال، أو من طور الى طور حيث يرى السيد الطبطبائي : "والابتلاء نقل الشيء من حال إلى حال و من طور إلى طور كابتلاء الذهب في البوتقة، وابتلاؤه تعالى الإنسان في خلقه من النطفة هو ما ذكره في مواضع من كلامه أنه يخلق النطفة فيجعلها علقة و العلقة مضغة

(١) مجمع البيان ، الشيخ الطبرسي ،تح: السيد هاشم رسول المحلاتي و السيد فضل الله اليزدي الطباطبائي، دار المعرفة للطبعة والنشر ، بيروت- لبنان ، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م ، ط/ الاولى ، ١٠/ ٦١٥

(٢) ينظر : مفاتيح الغيب ، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط/ الثالثة – ١٤٢٠ هـ ، ٣٠/ ٧٤١

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، البيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط/ الأولى – ١٤١٨ هـ ٥/ ٢٦٩

إلى آخر الأطوار التي تتعاقبها حتى ينشئه خلقا آخر"[١]

يرى الشيخ محمد جواد مغنية : " ﴿ نَبْتَلِيهِ ﴾ حيث يلاقي الانسان العناء المرير من الصراع بين ضميره ونزواته " [٢]

وما ذهب اليه مكارم الشيرازي في بيان قوله تعالى :﴿ نَبْتَلِيهِ ﴾: "إشارة إلى وصول الإنسان إلى مقام التكليف والتعهد وتحمل المسؤولية والاختبار والامتحان، وهذه هي إحدى المواهب الإلهية العظيمة التي أكرم بها الإنسان ، وجعله أهلًا للتكليف وتحمل المسؤولية، وبما أنَّ الإختبار والتكليف لا يتمّ إلاَّ بعد الحصول على المعرفة والعلم ، فقد أشار في آخر الآية إلى وسائل المعرفة، والعين والأُذن التي أودعها سبحانه وتعالى في الإنسان وسخرها له." [٣].

يقول السيد قطب : " والله سبحانه يعلم ما هو؟ وما اختباره؟ وما ثمرة اختباره؟ ولكن المراد أن يظهر ذلك على مسرح الوجود، وأن تترتب عليه آثاره المقدرة في كيان الوجود، وأن تتبعه آثاره المقدرة ، ويجزى وفق ما يظهر من نتائج ابتلائه"[٤].

وفي مقام التقديم والتأخير في هذه الاية يقول ابن عاشور : لأن الابتلاء، أي التكليف الذي يظهر به امتثاله أو عصيانه إنما يكون بعد هدايته إلى سبيل الخير، فكان مقتضى الظاهر أن يقع نبتليه بعد جملة ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾ [سورة الإنسان: ٣] ، ولكنه قدم للاهتمام بهذا الابتلاء الذي هو سبب السعادة والشقاوة." [٥]

المطلب الثاني : ابتلاء الانبياء :

لما كان الإبتلاء أو البلاء سنة من سنن الله الكونية وإنّها خصلة لاتنفك عن الانسان منذ

(١) الميزان في تفسير الميزان ، ، محمد حسين الطباطبائي ،٢٠ / ١٢٣
(٢) التفسير الكاشف ، الشيخ محمد جواد مغية ، مطبعة أسوة ، ط / الاولى ، ١٤٢٤هـ ق- ٢٠٠٣م ، ج/ ٤٧٨
(٣) الامثل في تفسير كتابِ الله المُنزَل، الشَيخ نَاصرِ مَكارم الشِيرازي ، ١٩/ ١٤٨
(٤) في ظلال القرآن ، سيد قطَب ، ج/ ٣٧٨٠
(٥) التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس ، ١٩٨٤ هـ ، ٢٩ / ٣٧٤

خلقه ونشئته، قد اختبر الله تعالى الانبياء والمرسلين والاوصياء ؛ كي يكونوا قدوة واسوة لسائر العباد فجعلهم مثلًا في الصبر والتحمل مما يعزز رفعتهم ودرجاتهم العليا عنده تعالى، فكان الابتلاء ملزمًا للأنبياء على مدى عمرهم الشريف ، وابتلوا بكثير من المصائب والبلاءات فوقفوا أمامها بصمود وتصبر في مرضاة الله تعالى، وهنا نأخذ بعض النماذج على سبيل المثال وما يقتضيه البحث الاختصار منها :

وفي المقام انّ ابراهيم "عليه السلام" لما اختبره الله تعالى فذكره ابتداءً – في سورة البقرة – بالابتلاء والامتحان ؛ اعلامًا لخلقه بأنّ الانبياء والاوصياء إنّما وصلوا الى مراتبهم العالية بالاختبار والامتحان ، وإنّ ابراهيم عليه السلام قد خرج من ذلك بأحسن وجه وبانَ فضله وكماله باتمام ما كلّفه الله سبحانه وتعالى به [(١)].

والغاية إنّ ابتلاء الأنبياء والمقربين تحفة لهم لرفع الدرجات التي لا يمكن الوصول إليها بشيء من العمل إلاّ ببلية ، كما أن بعض الدرجات لا يمكن الوصول إليها إلاّ بالشهادة فيمن الله سبحانه على من أحب من عباده بهما تعظيمًا وتكريمًا له [(٢)].

أورد الشيخ الطوسي (ت٤٦٠هـ) في تفسيره : إنّ ابراهيم عليه السلام ابتلاه الله بالكوكب وبالقمر وبالشمس، وبالختان وبذبح انبه، وبالنار، وبالهجرة وكلهن وفى لله فيهن ، ويروي عن مجاهد حيث قال : ابتلاه الله بالآيات التي بعدها وهي ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة : ١٢٤] وعن الجبائي: أراد بذلك كل ما كلفه من طاعاته العقلية والشرعية [(٣)] .

فقد ورد في بحار الانوار عن أبي عبد الله عليه السلام قال : " إنّ أشد الناس بلاء الأنبياء صلوات الله عليهم ثم الذين يلونهم، ثم الأمثل فالأمثل " [(٤)]، وأورد أيضًا عن الامام جعفر بن محمد،

(١) ينظر: مواهب الرحمان في تفسير القرآن ، السيد عبد الاعلى السبزواري، مطبعة نكين / منشورات دار التفسير – قم المقدسة / ايران، ط/ الخامسة ، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م ، ٢ / ٥

(٢) شرح أصول الكافي، المازندراني، ٩/ ٢٠٦

(٣) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي ، تح: أحمد حبيب قصير العاملي ، ١/ ٤٤٥

(٤) بحار الأنوار ، العلامة المجلسي ، تح : يحيى العابدي الزنجاني ، عبد الرحيم الرباني الشيرازي مؤسسة الوفاء – بيروت – لبنان ، ط/ الثانية، ١٤٠٣ – ١٩٨٣ م ، ١١/ ٦٩

عن أبيه عليه السلام قال : " إنّ أيوب ابتلي سبع سنين من غير ذنب، وإنّ الأنبياء لا يذنبون ؛ لأنّهم معصومون مطهرون لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنبا صغيرا ولا كبيرا، وقال عليه السلام : إنّ أيوب من جميع ما ابتلي به لم تنتن له رائحة، ولا قبحت له صورة، ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح ، ولا استقذره أحد رآه، ولا استوحش منه أحد شاهده، ولا تدود شئ من جسده، وهكذا يصنع الله عز وجل بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه ، وإنّما أجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره ؛ لجهلهم بماله عند ربه تعالى ذكره من التأييد والفرج "[1]، إذن فإنّ الابتلاء سنة الهية خطها على بني آدم وخاصة الانبياء؛ كي يكونوا رمزًا وقدوة لباقي الناس .

وفي المقام نفسه فإنّ النبي الاكرم محمد ﷺ تحمل ما تحمل من البلاء في حياته ، سيما في الظروف التي قاساها بعد بعثته فقد ورد عنه ﷺ : "نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء، فالمؤمن من الأمثل فالأمثل، ومن ذاق طعم البلاء تحت ستر ، حفظ الله له تلذذه أكثر من تلذذه بالنعمة ، ويشتاق إليه إذا فقده ؛ لأنّ تحت يد البلاء والمحنة أنوار النعمة ، وتحت أنوار النعمة نيران البلاء والمحنة، وقد ينجو من البلاء كثير، ويهلك في النعمة كثير، وما أثنى الله تعالى على عبد من عباده من لدن آدم إلى محمد ﷺ إلا بعد ابتلائه، ووفاء حق العبودية فيه، فكرامات الله في الحقيقة نهايات بداياتها البلاء ومن خرج من سبيكة البلوى، جعل سراج المؤمنين، ومؤنس المقربين، ودليل القاصدين، ولا خير في عبد شكى من محنة تقدمها آلاف نعمة، وأتبعها آلاف راحة، ومن لا يقضي حق الصبر على البلاء، . . . "[2]

المطلب الثالث : ما يقتضيه الابتلاء :

قد تبين فيما سبق إنّ الابتلاء هو الاختبار والمحصلة في ذلك إنّ العبد أمام المعبود يُلزم منه بيان موقفه إذا بلاه الله عزّوجل ببلاء فعليه أن يكون في دوامة الخضوع والتحمل ، وقباله الشكر لله تعالى والبقاء على منهج الحق ، ولا يزل عنه الى مهالك الشيطان فان البلاء

(١) بحار الأنوار ، العلامة المجلسي ، ١٢/ ٣٤٨.
(٢) المصدر نفسه، ٤٦/ ٢٣١.

لما يقع على الانسان يبقى شاردًا بما أصابه فيراوده الشيطان ويدخل في مخيلته ، فيحاول الشيطان عندئذ أن يشكك في أمره ويجعله مترددًا في إيمانه فعليه أن ينتبه ويبقى متمسكًا بمعصم الطاعة لله تبارك وتعالى فسرعان ما تفرج الامور وتُحلّ القضايا بين يديه بمعنى أنّ الاختبار قد انتهى فتعلم النتيجة والمحصلة من عملية الابتلاء الى احتواء ، فإنْ صبر الانسان ظفر بالبشرى .

يقول محمد جواد مغنية : " ثم إنّ التمحيص بالبلاء هو المحك الذي يظهر الإنسان على حقيقته، فالمؤمن العاقل لا يخرج عن دينه عند نزول المصيبة ، ولا يتفوه بكلمة الكفر والسفه والجهل، بل يصبر ولا يذهب البلاء بعقله وإيمانه، أمّا ضعيف العقل والايمان فيستولي عليه الشيطان"[1]، يقول الرازي : " إنّ إخلاص الإنسان حالة البلاء ورجوعه إلى باب الله تعالى أكثر من إخلاصه حال إقبال الدنيا عليه ، فكانت الحكمة في هذا الإبتلاء ذلك " [2]

وفي هذا السياق نجد الكثير من النصوص القرآنية التي حثت على ذلك .قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة البقرة : ١٥٥] ولبيان ذلك نورد بعض أراء المفسرين حول هذا النص المبارك:

يقول محمد جواد البلاغي : الخطاب للذين آمنوا كما يقتضيه السياق على ذلك رضوا بما قضى اللّه وتسليمهم لحكمته ، فلا يصدهم ما ذكر عن شكر ما هم فيه من نعمة ، ولا عن عبادته وطاعته والجهاد في سبيله ، وكل ما هو لنا من حياة ونعمة إنّما هو من عنده بدون استحقاق لنا في أقل شيء من ذلك يفعل بحكمته ما يشاء [3]، وقبال ذلك على الانسان مع الشكر الصبر والتسليم لأمر الله تعالى وعدم الجزع والتذمر وعلى ذلك يكون مناط الثواب والعقاب، وقال السيد طنطاوي في بيان الاية المباركة: "ولنصيبنكم بشيء من الخوف

(١) التفسير الكاشف ، محمد جواد مغنية ،/ ٢٤٣.
(٢) مفاتيح الغيب ، فخر الدين الرازي ، ٢/ ١٢٩.
(٣) آلاء الرحمن في تفسير القرآن ، محمد جواد البلاغي النجفي، مطبعة العرفان – صيداء ، ١٣٥٢ – ١٩٣٣ م ، ١/ ١٤٠.

وبشيء من الجوع، وبشيء من النقص في الأنفس والأموال والثمرات، ليظهر هل تصبرون أو لا تصبرون، فنرتب الثواب على الصبر والثبات على الطاعة ،ونرتب العقاب على الجزع وعدم التسليم لأمرالله" [1].

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم .

٢. الابتلاء مدرسة الاستقامة ، السيد محمد تقي المدرسي ، دار محبيّ الحسين عليه السلام، ط/ الثالثة ، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م .

٣. الابتلاء وكيف تستفيد منه الدعوات ، مجدي الهلالي، مؤسسة اقرأ، للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة ، ط/ الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م .

٤. أسئلة القرآن المجيد وأجوبتها من غرائب آي التنزيل، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي.

٥. آلاء الرحمن في تفسير القرآن ، محمد جواد البلاغي النجفي، مطبعة العرفان – صيداء ، ١٣٥٢ - ١٩٣٣ م .

٦. الأمثل في تفسير كتابِ اللهِ الـمُنزَل، الشَيخ نَاصِر مَكارم الشِيرازي ، الاميرة للطباعة والنشر والتوزيع / بيروت – لبنان، ط/ الاولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

٧. أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي ، دار إحياء التراث العربي – بيروت ، ط/ الأولى - ١٤١٨ هـ .

٨. بحار الأنوار ، العلامة المجلسي ، تح : يحيى العابدي الزنجاني، عبد الرحيم الرباني الشيرازي.

٩. مؤسسة الوفاء - بيروت – لبنان ، ط/ الثانية، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م .

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، محمد سيد طنطاوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة ، ط/ الأولى ،١/ ١٣٥

١٠. التبيان في تفسير القرآن، الشيخ الطوسي ، تح: أحمد حبيب قصير العاملي .

١١. التحرير والتنوير(تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس ، ١٩٨٤ هـ .

١٢. التفسير الكاشف ، الشيخ محمد جواد مغية ، مطبعة أسوة ، ط / الاولى ، ١٤٢٤هـ ق- ٢٠٠٣م

١٣. السر في أنفاس الصوفية، الجنيد البغدادي، تح: الدكتور عبد الباري محمد داود ، دار جوامع الكلم، القاهرة – مصر ، ط/ الأولى، ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥ م.

١٤. السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم ، توفيق بن أحمد الغلبزوري، كلية أصول الدين- جامعة القرويين- المملكة المغربية .

١٥. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ،أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تح: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط/ الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

١٦. الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ،تح: محمد إبراهيم سليم ،دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر .

١٧. القرآن وإعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم ، دار الفكر العربي – دار الثقافة العربية للطباعة .

١٨. المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) ، تح: صفوان عدنان الداودي ، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت ، ط/ الأولى – ١٤١٢ هـ .

١٩. مواهب الرحمان في تفسير القرآن ، السيد عبد الاعلى السبزواري، مطبعة نكين / منشورات دار التفسير – قم المقدسة / ايران، ط/ الخامسة ، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م

٢٠. الوحي والإنسان – قراءة معرفية ، محمد السيد الجليند، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة .

إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ

وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ

وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ